صدر عن ( المدى )

# مساء بورخس العادي في بوينس آيرس

سعد محمد رحيم

ما الذي يغري في حياة شخص مثل بورخس؟ أعمى يقضي جل وقته بين الكتب، ويتصور الفردوس الذي وعد به الله الصالحين من البشر مكتبة كبيرة عامرة. رجل مغرم بالكوابيس والأحلام وغير نفور من الواقع تماماً، وفوق هذا وذاك يؤمن إيماناً لا يضاهى بالأدب، لا الكلمات بكينونتها العارية المجردة، فهو ينظر للكلمات بعين الريبة، "رجل الأدب بالكاد يؤمن بالكلمات" كما يقول.. يعشق الشعر والموسيقى، ولا يرى سبيلاً أفضل في مواجهة رعب الوجود من خلق الاستعارات. فهل كان يمكن أن يكتب ما كتب من غير أن يحلم، ويتعايش مع الكوابيس؟ ألم يكن مركز وعيه، أو لنقل منبع إبداعه، في أطلس الكابوس؟!.

يحمل الحديث عن بورخس، دوماً، قدراً من الإثارة والغموض.. إن نمطه يختلف عن نمط همنغواي، لا شك، وعن نمط نيرودا وماركيز وأدغار آلان بو، وحتى رفائيل ألبرتي. ( أنا أفكر بسير هؤلاء التي قرأناها، والتي كتبوها بأنفسهم، أو كتبها عن حيواتهم آخرون ). ومنذ البدء نعد أنفسنا، مع بورخس وحياته، أو مقاطع من حياته، كما لو أننا إزاء قلعة شامخة فوق جبل، تبدو قريبة ومتمنعة.. فارهة، غير أنها كئيبة إلى حد ما.. تفتقر إلى الوضوح لكن ليس من الصواب تجاهلها.. غريبة بعض الشيء وآسرة أيضاً.. مع قلعة مثل هذه نحن موعودون بالحيوية والحيرة والمفاجآت، وبعبارة أدق، باللعب..


بورخس

ويليس بارنستون هو صديق بورخس لمدة تزيد على العشرين عاماً، اصطحبه طويلاً، وتعرف على أدبه عن كثب طالما كان مترجمه إلى الإنكليزية، وخاض معه نقاشات في الأدب والفكر والفلسفة، وفي أمور شخصية كثيرة. وكتاب بارنستون ( بورخس: مساء عادي في بوينس آيرس )* تسجيل لأفكار وانطباعات ومشاهد ولقاءات على خلفية من أحداث تضيء بعضاً من عوالم بورخس الجوانية، وجوانب من أدبه، ولمحات من حياته التي عاشها.. علاقاته مع النساء والرجال، وأسفاره التي استمتع بها حتى بعد فقدانه بصره، وآراؤه في أسلافه ومجايليه من الأدباء.

يقول بارنستون أنه التقى بورخس في العام ١٩٦٨ في أثناء أمسية شعرية في نيويورك، وكان في ذلك الحين قد بدأ يفقد بصره. ومنذ أول لقاء نشأت بينهما علاقة صداقة عميقة. وبورخس من سلالة عسكرية، إذ كان أجداده من الكولونيالات المحاربين، أما هو فلم يكن لائقاً حتى للخدمة العسكرية، وكان عليه أن يكون مبتكراً، مبدعاً، فكان.

وفي العهد البيروني، في بوينس آيرس، عاش على حافة الخطر.. كان يمكن ببساطة أن يكون واحداً من ( المختفين ) أو المقتولين على الطريق.. كان هدفاً سهلاً هو الذي يقطع الطريق ماشياً إلى بيته بشموخ وتأن ولا اكتراث.. لم ينشغل بالسياسة بمعناها وسلوكها التقليديين، لكنه لم يكن بعيداً عنها. كان له رأيه وموقفه الذي لا يخلو مثله مثل المبدعين فاقدي البصر من التهكم. ودائماً يتهيأ لنا أن هناك شيئاً من اللاجدية فيما يقول.. شيء أشبه بالحيلة، كما لو انه يريد إمتاعنا وإثارتنا من خلال تضليلنا، فيقودنا إلى حيث يريد هو، لا إلى ما نرغب نحن في الوصول إليه، فمع بورخس عليك أن تكون متفتح الذهن، متنبهاً، وأن لا تفقد احترامك لإبداعه، ودائماً يخيل إليك أنه بعد كل قصة ينهيها يقهقه بصخب كأنه يحدس بحيرتنا وارتباكنا ودهشتنا.

ولما صار أميناً للمكتبة الوطنية في الأرجنتين، حارساً لأكثر من ٨٠٠٠٠٠ كتاب كان قد تلقى هبة الظلام.. يقول في إحدى قصائده "بطيئاً في عتمتي، أكتشف/ خيوط الغسق بعصاي المرتجفة/ أنا الذي تخيل أن الفردوس هو الفضاء/ القابع تحت عنوان مكتبة ).

من الصعب تحديد ماهية شخص بورخس، التعرف عليه بدقة عالية، إنه يراوغك دائماً، مستمتعاً بخداعك، ومن هم من نمط بورخس يتملصون من أي تعريف أو تحديد لذا تنسج حولهم الأساطير، أو في أقل تقدير الأقاويل.. يتعرضون لنوع من النميمة طالما كان شيء من الإبهام يكتنف حياتهم ووجودهم، وحتى إبداعهم.. هل "أن بورخس كاتب ذهني، وشاعر ميتافيزيقي، ومحلل لأفلاك باسكال، ومخترع لآلات الذاكرة"؟ ص,٨٣ هذه الصورة، في أحسن الأحوال بحسب بارنستون، تشكل نصف الحقيقة، وبحسب بارنستون أيضاً "فبالإضافة لرياضي الوقت والمعلم الذهني، العاطفي والمؤتمن بشكل مكثف، ثمة الرجل الحكيم والهادئ بشكل حصيف والمتصالح مع نقاط الضعف الإنساني، ومع عالم بلا ألوهة، يوحي دائماً بطلسميته لكنه في الوقت ذاته يخفيها باستمرار" ص,٨٤

حرمه عماه من أن يرى ما نراه، بيد أنه أمضى ما تبقى من حياته كي يرى أعمق مما نرى وأبعد، أو في الأقل بكيفية يعرفها هو ويتقنها. وان يعيش ويكتب، مدركاً أن لا جدوى من العيش من غير كتابة.. في أن يقول ما يفكر به، وما يبتكره من صور وجمل ومفارقات. وقد وجد في العمى نوعاً من المكافأة، طالما كان يمنح إحساساً مختلفاً بالأشياء والذات والزمن، أو هو شيء أعقد من هذا، أن تعيش في الذاكرة، أن تعتاد الخيال، لأنك شاعر "والشاعر يجب أن يعيش بالذاكرة، إذ ما هو الخيال على أية حال؟ أعتقد أن الخيال مصنوع من الذاكرة والنسيان. إنه نوع من المزج بين هذين الشيئين" ص,١٥٧ ويوماً ما أدهشته عبارة قالها سائق سيارة أجرة أميركي رفض التحدث عن مشاهداته في الحرب العالمية الثانية مؤداها: إن الذاكرة جحيم.

وأعتقد أن مكمن قوة إبداعه هو في عدم تأكده من أي شيء، في تناقضه ومفارقاته وأسئلته، فهو بورخس الذي يظن أنه ليس بورخس، ويستيقظ على ثقل فكرة أنه بورخس، أو أنه ليس أكثر من كائن يعيش في حلم كائن آخر.. إنه هو وليس هو في الوقت نفسه.. هو الواحد المتعدد الذي له ألف قرين.. الموزع في الأمكنة والأزمنة، الضعيف، والقوي في روحه. الأعمى حاد البصيرة، الهش الذي لا يخشى الموت.. يباغته لص ويصرخ به: جزدانك أو حياتك، فيرد بحزم: حياتي، فيهرب اللص. أو يستوقفه شخص في بوينس آيرس ويقول له: بورخس، أنت خالد. فيرد: سيدي، لا تكن متشائماً إلى هذه الدرجة.

كلماته أنيقة مثل هيئته، ذاكرته متخمة أبداً، يحفظ عن ظهر قلب من الشعر والنثر ما يجعله ذا حضور أخاذ في أثناء أي حديث، بارع وماكر إلى أبعد حد، يراقب العالم على الرغم من عماه، ويثرثر مع كل من يبادره بالكلام. وبارنستون يعترف بأن كل ما يقوله بورخس له قيمته ويجب أن يسجل "لم يكن بورخس قادراً على التفوه بجملة ليست خالدة وتصلح للتسجيل بين دفتي كتاب" ص..١٨٠ ثرثرته خلاقة.. هي جزء من أدبه.. حياته هي أدبه، هو الغارق في الأدب إلى حد ميؤوس منه، الأدب إذ يجعل من حياته متعة متصلة، وهذا لا ينفي مشاعر الوحدة والعزلة التي تنتابه أحياناً مجللة بالكآبة والتشاؤم.

ومن ضمن ثيماته الرئيسة كان الموت.. يسأله بارنستون: وموتك؟. فيجيب: "يمكن أن يأتي كطائر أسود في الليل، لن أبالي. بالرغم من أنني أقول للآخرين بأنني مريض ومتعب من متعة كوني بورخس كل ليلة، ما زال لدي قصائد لأكتب، كتباً لأقرأ، وأمكنة لأرى" ص..٦٥ ربما لم يكن يهتم للموت مثلما يدعي، بل إنه يرحب به، ذلك الموت الذي "سيحرره من الحياة والآخرة معاً. أما خوفه فأن تكون الآخرة حقيقية، وهذا يعني عذاباً أبدياً، طالما أنها ستكون كالحياة نفسها، وها هو قد نال منها ما يكفيه" ص,٧٨

تتصل فكرة الموت عنده بفكرة المتاهة، وهذه تتصل بالكوابيس، وحتى سريره غير المريح بفراشه المتحرك وغير المتوازن المسنود الى نوابض رقيقة مهلهلة كما يصفها بارنستون، كان يتركه نهباً للاكتئاب والكوابيس، ويسلمه للعالم السفلي. وتحت التأثير الطاغي والمخرب لذلك العالم كان قد كتب بعضاً من أجمل أعماله..

يشير بورخس إلى كوابيس جوهرية ثلاثة هي المتاهة، الكتابة، والمرايا. وثمة كابوس يأتي من عماه، وهو كابوس محاولته القراءة وعدم قدرته عليها، وما هو صعب، كما يرى، في كتابة الكابوس، هو أن شعور الكابوس لا يأتي من الصور بل يعتمد على الكلمات، وبالرجوع إلى كوليردج فإن الشعور هو الذي يمنحك الصور.. يقول بورخس "عندما تكتب تلك الصور، فإنها يمكن أن لا تعني لك أي شيء.. الصور مفزعة في حين أن الشعور ليس كذلك" ص,١٦٠

وإذا كان يعتاش، نوعاً ما، على عالم ذهنه السفلي فإنه كان مغرماً بالعوالم السفلية للمدينة، يكره الطبقة الوسطى وينجذب للأحياء الفقيرة حيث يتصورها خارجة عن القانون أكثر مما هي في الواقع.. كان هيامه أبداً بما هو غير مألوف، وغير اعتيادي ومثير. وهذه سمات يمكن تلمسها في نصوصه الأدبية.

ليست الأسئلة الكبيرة المتعلقة بقضايا السياسة ومستقبل العالم هي التي تهمه بقدر ما تهمه الأسئلة الشخصية، وما يحيره ليس إلا ما يعد بديهيات وحقائق قارة في عرف كثر من الناس.. تحيره حقيقة وجوده، وتموضعه في جسد إنساني، ونظره عبر عينين وإصغائه عبر أذنين.. يفكر في إن كان قد عاش قبل ولادته في العام ١٨٩٩ كائناً في مئات الأشخاص غريبي الأطوار. وحين يستيقظ في كل صباح يشعر بالإحباط "والسبب هو أنني ما زلت أنا.. هي ذي اللعبة السخيفة القديمة نفسها لاتزال مستمرة. علي أن أكون شخصاً ما" ص,١٥٢

لم يحب القيود من أي نوع، حتى ذلك القيد المتمثل بالإفراط في مساعدته، صار اتكالياً بسبب عماه، غير أنه كان يتحرر حتى من الصداقة، كلما شعر بأن الأمر يسلبه حريته. ويضيف بارنستون نوعاً آخر من الحرية لديه "حرية الاختيار والالتزام برفيقته الأخيرة، وحل عقود من الصداقة مع ماريا كوداما عبر زواجه قرب سرير موته. وكان ذلك ذروة حياة بورخس قرب موته، بل حسب رأيي، أكثر أفعاله نبلاً وأخلاقية ورومانسية" ص,٢٠٥ وماريا هذه ولدت في الأرجنتين لأم ألمانية وأب ياباني.

ومثل كتّاب أميركا اللاتينية العظام كان مراقباً دقيقاً لمحيطه، وملتقطاً لعبارات وحكم الناس الذين حوله "من سائقي التاكسي والخدم والموظفين العاديين بنفس الطريقة التي كان يغرف فيها من صاموئيل جونسون وأوسكار وايلد" ص,٢٣٧ حكم إحساسه الأبدي بأنه ما زال طفلاً لم يكبر، وأمامه مدى واسع من الحياة على أسلوبه الأدبي.

ونحن نجد نوعاً من القرابة في الرؤية بينه وبين كافكا، بحسه الغرائبي الكئيب في النظر إلى العالم، وتلك المسحة من الشك والحيرة التي تطبع كتاباته، وذلك السيل من الأسئلة العنيدة المستفزة التي يلقيها على ذاته والعالم ليبقى بعيداً عمّا يعرف بسلام النفس وطمأنينة الروح الكاذبة، فكافكا هو سلفه، وله مقالة بعنوان ( كافكا وأسلافه ) يعترف فيها بأن "كل كاتب يخلق سلفه، إذ عمله يبدل من مفهومنا للماضي مثلما يبدل المستقبل" ويستنتج بارنستون بأن كافكا يمثل الابتكار الأدبي لبورخس فبعد "قراءتنا بورخس تتغير قراءتنا لكافكا بشكل جوهري" ص,٢٢٧ وربما استمد من كافكا حقيقة أن المقولات الوجودية الكبرى ما هي إلا طلاسم ناقصة لا تكتمل، وأن الكلمة الحقيقية لا تُقال أبداً، بل يجب أن لا تُدرك أيضاً، ولهذا كان مضللاً ومتناقضاً، أعمق كتاباته هي تلك التي تتعلق بلحظة الموت، وسر تلك اللحظة بعد الموت. وكلما سبح أبعد على أمواج السنين وغار في العمى كلما نضج أكثر "وقصائده المكتوبة في سن الثامنة والسبعين هي من بين أكثر النصوص مهارة، وعمقاً وتأثيراً. صارت رؤيته أكثر حدّة، ويده أكثر ثقة. بدأ بالشعر وانتهى بالشعر. ومثل الحكماء ما قبل السقراطيين، وخاصة ( إل غريكو )، التسمية التي نحتها لهيراقليطس الغامض، كتب بورخس الفلسفة شعراً وأمثالاً، وكانت أغنيته مستمرة" ص..٢٨٤

هذا ما يقوله بارنستون عن بورخس، ويقول عبر ٣٠٠ صفحة أشياء أخر غنية، باهرة وممتعة تكشف لنا جوانب وأسراراً لم نكن نعرفها عن أدب وحياة هذا الكاتب الفذ.

* ( بورخس؛ مساء عادي في بوينس آيرس ) ويليس بارنستون.. ترجمة: د.عابد إسماعيل . دار المدى للثقافة والنشر. دمشق. ط١/ ٢٠٠٢,

# الإنسان المهدور

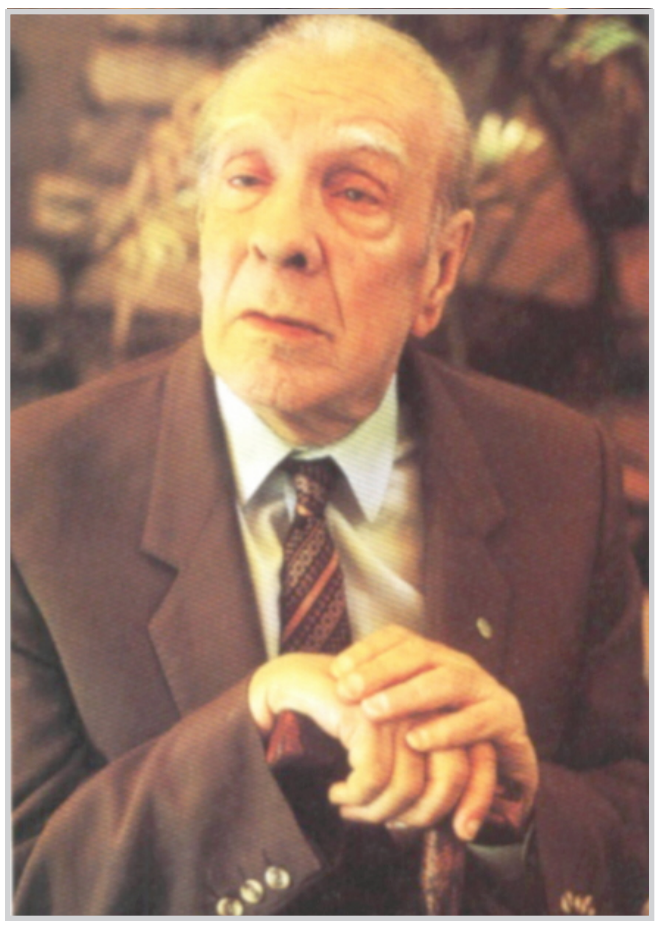

## دراسة نقدية للانسان العربي

صالح حسن فارس

بعد أن يحدد الكاتب د. مصطفى حجازي التعريفين القاموسي والاصطلاحي لمفهوم "القهر" يقول عن ثيمة كتابه الجديد : "أما الهدر فهو أوسع مدى بحيث يستوعب القهر الذي يتحول إلى إحدى حالاته. فالهدر يتفاوت من حيث الشدة ما بين هدر الدم واستباحة حياة الآخر باعتباره لا شيء، وبالتالي عديم القيمة والحصانة مما يمكن التصرف فيه وبين الاعتراف المشروط بإنسانية الإنسان كما يحدث في علاقة العصبيات بأعضائها."أما تعريف الهدر لغوياً فيعني الإباحة وسحب القيمة وسقوط المكانة والوزن والسماح بالتالي بالتصرف في الشخص أو دمه بدون موانع.

يقودنا المؤلف في تحليلاته إلى قاعة هادئة ولكنها شائكة ومعقدة في ساحة التحليل النفسي حيث نرى مبضع جراح خبير وذي خبرة كبيرة وواسعة تشرح وتغوص في أعماق الذات العربية، مشخصا العقد والحالات المرضية وسبل الذات في الدفاع وحفظ التوازن والتي لا يمكن لأي مشروع تنموي أن ينهض قبل أن يحسمها ويعالجها لأنها ما زالت تشكل عقبات كبيرة في التطور. تمتاز لغة الباحث بالسهولة والمتعة التي تصل للقارئ وهو يقرأ الكتاب بشوق دون عناء ومشقة في الجمع بين متعة القراءة ومعالجة الذات معا !

يبدأ الكتاب بمقدمة للمؤلف، ومن ثم ينتقل إلى فصول الكتاب الثمانية التي تتجلى في:(هدر الإنسان، محدداته وتجلياته: ماقبل الديموقراطية الاعتراف بالإنسان)، والفصل الثاني بعنوان (العصبيات والهدر)،أما الفصل الثالث فهو( الاستبداد، الطغيان وهدر الإنسان)، والفصل الرابع كان بعنوان ( الاعتقال، التعذيب وهدر الكيان) ثم الفصل الخامس الذي تناول (هدر الفكر)، والفصل السادس تخصص بـ ( الشباب المهدور: هدر الوعي والطاقات والانتماء)، في حين يتناول الفصل السابع ( الهدر الوجودي في الحياة اليومية)، وقد تطرق الفصل الثامن إلى ( الديناميات النفسية للإنسان المهدور ودفاعاته)، أما الفصل التاسع والاخير فعرض مفصل في (علم النفس الإيجابي وبناء الاقتدار في مجابهة الهدر) .

يسبر الكتاب أغوار انسان عالمنا العربي في واقعه الراهن والمآزق التي تحيط به وتنهشه من كل مكان خصوصا إنساننا العربي ( المهدور حقا ) .

يقدم لنا الكاتب د. مصطفى حجازي قراءة متأنية تحليلية لدراسة المجتمع العربي من خلال الخصائص النفسية للهدر الانساني وآلياته الدفاعية؛ أي كيف تتجلى نفسيا وسلوكيا لدى الإنسان وتصوراته وسبل صيانة ركائزه الروحية والنفسية.

ركز المؤلف على منهجه الذي اراد ان يوضحه ويكشف لنا عنه حيث يقول": يبدو أننا في حاجة لدراسة واقعنا إلى توسل منهج البحث الخلدوني في دراسة العصبيات، أكثر من توسل مناهج البحث المعمول بها في العالم الصناعي الغربي، والتي يبدو أنها جانبت الصواب في تطبيقاتها ونتائجها. تكمن أهمية توسل المنهج الخلدوني في العصبية في كونها تشكّل معوقاً فعلياً على صعيد التنمية. ذلك أنها تتضمن العديد جداً من القوى المقيدة لإطلاق الطاقات وصحة المؤسسات، بما فيها هدر الإنسان والمؤسسات والأوطان ذاتها. ناهيك عما تحمله من فيروس العنف والاقتتال، مما يهدر الداخل والخارج سواء بسواء، بأعتبار أن العصبية تقوم في الأساس على الأحادية، ولاتقبل التنوع، كما لاتعترف بالاختلاف."

أزاح الدكتور حجازي في دراسته الستار عن المحظورات التي يعيش فيها المجتمع العربي ويشكل كتابه الجديد كما كتبه السابقة علامة جديدة ومميزة وجادة في القبض على مشكلة التخلف وضرورة الحديث عن مرحلة ما قبل الديمقراطية ومعالجات الذات المقهورة والمهدورة فلا تنمية بدون تنمية الإنسان كما يؤكد الدكتور حجازي على بيانه بشدة مما يدل على عمق الكاتب وخبرته الطويلة في دراسة المجتمع العربي وشخصية الإنسان فيه. شخص لنا في دراساته الكثير وفتح لنا الأفق لعشرات الأسئلة الأخرى مما يتعلق بواقعنا العربي ومشكلة الإنسان فيه وأزماته ولا يكتفي بتشخيص وتحديد المشاكل بل يقدم ويقترح حلولا لها وهذا ما يميزه عن الكثير من الدراسات التي تكتفي بطروحاتها النقدية الواسعة دون أن تقترح حلا أو حلولا.

# قصائد

جلال زنكابادي

### أية يد؟

اية يد
تسحب منديلا
تلوح به لي ؟
تسحب مسدساً
تطلق الرصاص عليّ؟
تسحب صورة لي
تخط تحتها (يعيش...)؟
اية يد تنثال ؟
تغتال؟
تختال؟
كلما اطلقت يدي صلية قصائد مجنونة
على زعماء الانابيب الميمونة؟

### سعداي

اما تراني يا الهي
محشوراً بين السلحفاة والوردة؟
فمتى سيقترن سعداي
فاحظى بعمر (.....) وشذى (......)
لعل آية فنائي الباقية تزدهي؟

### في حانة ....

لم ازل
اشهد كؤوسا طافحة بدمي
في حانة القدر
فكيف لا يمرق قلبي مني
ولا يسكر
منذ غسق الازل
حتى غبش الابد؟